عن قصة الجرّة التي أصبحت مجرّة

محمود شقير

في هذه القصة التي كتبتها ابتسام بركات بلغة قريبة من مدارك الأطفال، مستوحاة من عالمهم، ثمة لعب على الخيال، ولعب مع اللغة.

وعبر الخيال واللغة ثمة احتفاء بمدينة وامرأة.

المدينة هي يافا، والمرأة هي الفنانة التشكيلية الفلسطينية فيرا تماري؛ ابنة يافا.

وللمدينة بحر، والبحر يحب المدينة التي صار لها وله أولاد وأحفاد؛ من بينهم فيرا.

من أصداف البحر ومن الفخار المكسور الذي يرميه البحر ولدت موهبة فيرا وحبها للتشكيل الذي قادها حين كبرت إلى أن تصبح فنانة بارزة، خدمت بفنها الإنسان أينما كان، وخدمت في الوقت نفسه وطنها فلسطين، حين عبّرت بالطين وبالخزف، عن مدنه وقراه، وعن أطفاله ونسائه ورجاله.

تبدّى اللعب على الخيال في القصة حين زوّجت الكاتبة يافا للبحر فأصبحت عروس البحر، وحين استحضرت تاريخ الأجداد وتراثهم، وحين استعانت بالحلم وبأنسنة البحر والجرّة، وجعلتهما قادريْن على النطق مثل البشر.

وأما اللعب مع اللغة فقد بدا واضحًا في استفادة الكاتبة من الإيقاع اللفظي للكلمات، ومن الأمثلة على ذلك ورود الكلمات التالية في نهايات الجمل: أثرية/ سرمدية/ الفخارية. وكذلك: الأحزان/ الألحان/ الجرّة/ مسرّة.

وبرز اللعب الذكي مع اللغة في تحريك حرف الميم في كلمة: حلم، من مكانه، لنصبح أمام كلمة: حل، التي تدفع إلى التفكير في إيجاد نهاية مناسبة للقصة، ثم تثبيت حرف الميم قبل كلمة: جرة، لتصبح: مجرّة. وحين نعلم أن كلمة: مجرّة، التي تشترك مع كلمة: جرّة، في أربعة من حروفها، تعني عددًا كبيرًا من النجوم والكواكب فسوف يتبادر إلى ذهننا العدد الكبير للجرار التي أنتجتها فيرا تماري خلال مسيرتها الفنية الطويلة.

بعد ذلك؛ تعود الكاتبة بنا إلى البحر الذي ابتدأت به قصتها، لتذكرنا بالشبه بين التماع جرار فيرا ومنجزاتها الفنية الخزفية وبين التماع النجوم التي يعكسها بحر يافا على صفحته.

أخيرًا؛ تبدو القصة في تضافر عناصرها المختلفة كما لو أنها كتلة منسجمة من كلمات تضاهي في تشكيلها كتلة منسجمة من طين أو من خزف.

وتبدو رسوم وليد طاهر التي تحاكي في براءتها وعفويتها براءة الأطفال وعفويتهم، تأكيدًا على تضافر هذه الرسوم مع الكلمات لكي تضفي عذوبة أخرى على عذوبة السرد في هذه القصة المكرسة للأطفال.